دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الأمازيغ بين الدين الرسمي والتدين الشعبي في المغرب الإسلامي
بداية من العصر القديم وصولاً للعهد الوسيط

د. مروى بن سالم
الدكتوراه في التاريخ الوسيط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة صفاقس – الجمهورية التونسية

مُلَخّص

نستعرض في هذا المقال أهم الديانات التي توافدت على بلاد المغرب الإسلامي من وثنية ومسيحية ويهودية وصولاً للفتوحات الإسلامية التي راوحت المصادر في مواقفها منها أثناء نقلها وسردها للأحداث، وفي مستوى أخر لم يقلل حضور الدين الرسمي أو يؤثر على حضور التدين الشعبي لدى المجتمع البربري مما جعله نقطة قوة وأداة حاسمة لبعض القادة والدعاة الذين استغلوا هذه الميزة والعقدة لقيام وتأسيس الدول فقد كانت الحاجة ملحة لهذا النوع من التدين الذي تمثله فئة من المتصوفة والأولياء الصالحين خاصة في الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية مما يؤدي بطريقة مباشرة لميلهم إلى المغيبات وتصديق السحر والخرافات فكانت هذه التصورات بمثابة الحل لتجاوز المشاكل والصعوبات التي تسود هذه الفترة، والملاحظ هنا أن هذه المعتقدات كانت في أغلبها مستوحاة من حالة الفقر والفاقة حيث تدفع بهم الرغبة لتحسين أوضاعهم إلى تصديق الخرافات أو حتى اختراعها ونشرها بين الناس. مثلت هذه العوامل حافزًا كبيرًا لاستغلالهم من قبل الدعاة والحكام وذلك بتوجيه هذه الرؤية في مسار محدد لخدمة أطماعهم السياسية والمالية. سنحاول في هذا المقال تقديم نبذة عن علاقة البربر بالدين بمختلف مذاهبه وتوجهاته، ودراسة وتحليل هذه العلاقة المزدوجة معتمدين في ذلك على مقاربات ومقارنات تأليفية شاملة تمتد من الفترة القديمة حتى العصر الوسيط. فتميزت الفترة القديمة بمحاولات الحضارات الغازية فرض ثقافتها وديانتها على بربر شمال إفريقيا، وهو ما فشلت فيه بسبب سوء معاملتها واضطهادها لهم، وفي نفس الوقت استغل البربر هذه السياسة التعسفية لصالحهم للانقلاب على الحكم الروماني والبيزنطي في شكل حروب دامية متواصلة. ومع وصول العنصر العربي أمل البربر في العدل الاجتماعي والمساواة ولكن جور الولاة حال دون ذلك وقُسمت بلاد المغرب من جديد، كل هذه الثغرات والتجاوزات التي ارتكبها أصحاب الدين الرسمي أدت آليا إلى زيادة نفوذ التدين الشعبي عند بربر بلاد المغرب فكان ملجأهم الوحيد لقضاء الحاجات والطلبات، علاوة على شعور الأمان والطمأنينة الذي يجدونه في هذه الأماكن ويفقدونه مع الدين الرسمي القائم.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٢ يونيو ٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر: ١٩ يوليو ٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

الأمازيغ؛ الديانات؛ الوثنية؛ الفتح؛ البربر.

معرِّف الوثيقة الرقمي:

DOI 10.21608/KAN.2021.245808

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

مروى بن سالم. "الأمازيغ بين الدين الرسمي والتدين الشعبي في المغرب الإسلامي: بداية من العصر القديم وصولاً للعهد الوسيط".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص ١٤ – ٢٤.

Corresponding author: marwabensalem590@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَورِيةُ كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

ورد هذا البحث في فترة ممتدة مهمة من تاريخ بلاد المغرب الإسلامي اهتممنا فيه بدراسة أهم الديانات القديمة التي تبناها البربر من ديانة وثنية ومسيحية ويهودية وصولا إلى الفتح الإسلامي في العهد الوسيط بما في ذلك الظروف العامة والخاصة التي ساهمت في ظهور هذه الأديان وانتشارها بربوع المغرب الإسلامي وتقصي أحوال السكان ومدى إقبالهم على الأديان المتعاقبة، وفي مرحلة ثانية سنتطرق إلى المعتقدات الشعبية التي رسخت في أذهان البربر وانطبعت فيها عبر العصور، فمن الأكيد أن الأمازيغ مثل الشعوب البدائية لهم معتقداتهم الدينية الخاص بهم ولهم طقوسهم السحرية التي تعبر عن تفكيرهم الذي ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالطبيعة والكون في علاقة مع النظام السياسي القائم، لاسيما ونحن بصدد دراسة مجتمع مفكك في الأعراق والأنساب، فقد لعبت الثقافة البسيطة وانتشار الأمية وشيوعها إضافة للفقر والحاجة في هذه الأوساط دورا حاسما في درجة إقبالهم العالية على هذه المعتقدات.

فماهي العوامل الأساسية التي أدت لظهور الأديان وانتشارها بـبلاد المغرب الإسلامي؟ وهل كان لدين الرسمي أو الشعبي تأثير عميق على المسار السياسي لدول المغرب؟ وما هي أهم الآثار السلبية التي برزت على إثر خلط الديني بما هو سياسي؟

أولاً: لمحة عن معتقدات الأمازيغ القديمة

١/١-الديانة الوثنية والمسيحية واليهودية

عرف الأمازيغ عبر التاريخ العديد من الديانات في إطار التأثر بالحضارات التي تعاقبت عليهم، وفي هذا الإطار تذكر حياة عمامو عن الأمازيغ في العصور القديمة بأن لهم معتقدات دينية وثنية مثل كل الشعوب:" كانوا ككل الشعوب القديمة يملكون آلهة خاصة امتزجت بآلهة الشعوب الأخرى بنفس التداخل والتمازج وهو من عمق المعتقد البربري"[١]. هذه الطقوس الوثنية يمارسها البربر بأساليب عديدة ومختلفة عن طريق السحر والشعوذة وتقديم القرابين والهدايا إيمانا منهم بالميتافيزيقا والخوارق والمعجزات وعبادة الطبيعة والحيوانات[٢].

توجه تركيز الأمازيغ في الديانة الوثنية على النتوءات التضاريسية والمشاهد الطبيعية فراقت لهم عبادة الجبال والمغارات والصخور واعتبروها آلهة أو مسكنا للآلهة، وذلك لارتفاع قامتها باتجاه السماء أو الغوص في باطن الأرض، ففي المغرب الأقصى عبدوا مرتفع الأطلس لضخامته وعلوه نحو السماء وفي هذا السياق ينقل كامبس عن بلين الأكبر أن جبال الأطلس كانت تتألق في الليل بألف شمعة وتتعالى فيها أصوات آلهة الرعاة Egipans والساتيريين Satyres الضاربين على الطبول، وفي المغرب الأدنى كان جبل بوقرنين الآلهة المحببة لهم، أما وجود المغارة والكهف في باطن الأرض فيعتقدون أنه يسهل الاتصال بين الآلهة الأرضية والإله الأعلى، بالتالي يقتربون منه إذا غاصوا في الأرض ومثال ذلك الإله باكاكسBaccax في جبل طاية (بو حمدان) قرب المدينة الرومانية Thibilis، حيث يتوافد سكان المغرب على هذه المناطق محملين بالقرابين والهدايا مثل القنادل والقلال ليتردد عليها الجن (الجنون) أو أحصيص (الخراس) لإكرامهم أو على الأقل لاتقاء شرورهم[٣].

كما توجه الأمازيغ إلى عبادة الكواكب منها الشمس والقمر والنجوم وقدموا لها القرابين ومنحوها أسماء مخصوصة مثل نعت النجوم الستة على سواحل ليبيا بـ"ماجك" أو "أمان" والذي يعني سلطان أو إلاه في لغة الطوارق وكانوا يقدمون لها قرابين في شكل حيوانات خاصة الخرفان التي يطلقون عليها اسم "أمن" بمعنى الوسيط بينهم وبين الآلهة الذي يجلب لهم الأمن ويبعد عنهم الشر[٤]. وهو ما اتفق عليه هيرودوت بدوره حين ما أقر بأن كل الليبيين كانوا يقدمون القرابين للشمس والقمر وأكد ذلك ابن خلدون في إشارته لعبادة جزء كبير من البربر للكواكب إبان الفتح الإسلامي.

وعرف الأمازيغ عبادة الحيوانات وتقديسها، فحسب المصادر القديمة لاسيما النقائش الصخرية التي حملت الكثير من الرسوم الحيوانية تبين وجود أشكال حيوانات مختلفة منها الكباش ذات الرؤوس الكروية المزينة بالريش أو أغصان الأشجار، وهي رسوم واسعة الانتشار بين سائر الأطلس الصحراوي، كما كانت القردة محل عبادة وتقديس خاصة في منطقة تخوم تونس والجزائر في ما وراء سلاسل الجبال الساحلية، يذكر ديودوروس في هذا الصدد:" إن تلك القردة كانت تحتل المساكن ومخازن المؤن دون أن يسعى أحد إلى طردها منها، لأن السكان يعتبرونها بمثابة آلهة، فيكون في قتلها انتهاك لمحرم يجر على مقترفه عقوبة القتل"، وكذلك الثعابين، فهي مصدر خوف وتقديس في نفس الوقت وكانت عبادة "دراكو" واسعة النطاق تمتد من نوميديا إلى موريتانيا، ويُوجد بمدينة "تيبازا الموريتانية" صنم من البرونز في شكل حية برأس مذهب.

أمّا عبادة الأسد فقد نالت الحظ الأكبر من عبادة الحيوانات، ودليل ذلك الكم الهائل من الزخارف التي تجمع الأسد والشمس على قبور الأمازيغ في هذه الفترة، وفي هذا الأمر أدرجت المصادر ما يلي:" هما صورتان لإله واحد، وإنّ حضورهما داخل القبر ينور الميت ويرشده ويجمله هو الذي جعل تحت حماية الإله المعظم، سيد الزمن والحياة والموت"[٥].

ولم يكن الأمازيغ بشمال إفريقيا بمنأى عن شعوب البحر الأبيض المتوسط، فتأثروا بعديد المعتقدات للشعوب المجاورة والحضارات المتعاقبة مثل الحضارة الفارسية والرومانية واليونانية، وروى ليون الإفريقي أنّ الأمازيغ قد تأثرو بالفرس وعبدوا النار في معابد يحرسونها ليلا نهارا حتى لا تنطفئ وهو نفس التقليد كان يعتمد في معبد "فيستا" عند الرومان[٦]، كما عبدوا الآلهة المصرية "ايزيس" واحتراما لها حرموا أكل لحم البقر وتربية الخنازير وأكد على ذلك هيرودوت في حديثه عن الليبيين، وعند قدوم الفينيقيين تمازجوا معهم وشاركوهم في عبادة الآلهة وتبنوا معتقداتهم وعاداتهم وأعرافهم وأصبح الإله "بعل حمون" الذي اتخذ شكل الكبش إلاههم المعظم، وعبدوا مع قرطاج "بعل حمون" و"تانيت القرطاجية" اللذيْن مثلا بالترتيب إلاه الشمس والقمر ويذكر محمد محي الدين المشرقي:" هذا ولم يحذ المغاربة حذو القطاجين في الشؤون المادية والاقتصادية فحسب بل اقتفوا آثارهم في سائر الميادين الأخرى، فأخذوا عنهم ما كانوا يتحلون به من أخلاق وقلدوهم حتى في وثنيتهم، فجعلوا يعبدون الكبش "عامون" كما كان يعبد القرطاجيون من قبلهم، قلدوهم في كل شيء حتى كادت تبتلعهم تلك الحياة الجديدة"[٧]. هذا وقد تأثر البربر بغزاتهم المتعاقبين عليهم مثل الوندال والبيزنطيين والرومان، واتبعوا دياناتهم الوثنية فتُدُووِلَ بينهم مصطلح "جيني" الذي أرجعه الباحثين لإله لاتيني مرتبط بالمناطق الخضراء حيث توجد العيون الجارية مثل "جيني الشعب" بعين زينة بقسنطينة و"جيني المستعمر" بهنشير سيدي علي بلقاسم بتونس و"جيني القصر الأحمر" بمنطقة عين البيضاء بالمغرب[٨].

ولقد مثلت الديانة اليهودية أولى الديانات السماوية التي تعرف إليها الأمازيغ واعتنقوها، وصلت إليهم اليهودية عن طريق هجرة اليهود إلى منطقتهم في القرن الثالث قبل ميلاد المسيح تزامنا مع انهيار مدينة القدس وخرابها إثر هجرتهم مع الفينيقيين لغايات اقتصادية وسياسية وفي هذا الشأن يذكر محمد الصلابي:" لا يخفى أنّ تواجد هذا العنصر في العصور الأولى كان ضئلا جدا وسبب تواجده في منطقة الشمال الأفريقي كان لعدة أسباب منها سبب سياسي وهو حب السيطرة وتوسيع نفوذهم في أرجاء المعمورة وسبب اقتصادي حيث كان الشمال الأفريقي ينعم بخيرات البر والبحر، كل هذه الأسباب والدوافع مجتمعة كان وراء مجيء العنصر اليهودي للمنطقة، حيث وصلوا على هيئة جماعات صغيرة مع الفينيقيين قبل وصولهم الأخير إلى بلاد المغرب وأيام الرومان"[٩].

ورغم الاختلافات الواضحة بين المؤرخين حول استقرار اليهود في هذه المنطقة فإن عددهم وصل في مدينة قرطاجنة إلى حوالي ٣٠٠ألف وتكاثرت أعدادهم مع الغزو الروماني واستقروا في تونس والجزائر وموريتانيا والمغرب. وقد انصهر اليهود مع البربر وسكنوا جبالهم ومغاراتهم وتعايشوا معهم في سلام واستطاعوا أن يؤثروا عليهم فاعتنقت أعداد كبيرة من البربر الديانة اليهودية.

وفيما يخص الديانة المسيحية فقد عرفها الأمازيغ مع دخول الرومان إلى شمال إفريقيا واعتنقوها أملا منهم في أن تكون دين الخلاص من الذل والعبودية، ويشير أحمد توفيق المدني لذلك في قوله:" ظهرت بالشرق أنوار المسيحية في أول عهد القياصرة فاعتنقها جما كثيرا من الرومان وتسربت بواسطتهم إلى المغرب قدم مبشروها إليه فأعجب البربر بهذا الدين الآمر بالإخوة والمساواة ومكارم الأخلاق وتسارعوا إلى الدخول في دين الله أفواجا وأصبحت بيع صغيرة في كافة أنحاء البلاد المغربية"[١٠].

وعن أسباب تسارع البربر لاعتناق الديانة المسيحية فهي تتمحور أساسا حول الرغبة في العدالة الاجتماعية وتحقيق العدل والمساواة ورفع ظلم الأباطرة الرومانيين وجورهم، حيث كان المعتقد القائم هو عبادة الأباطرة الذين لم يتوانوا عن اضطهاد البربر واستغلالهم حتى أنهم يعتبرونهم مسخرين لخدمة الدولة الرومانية[١١]، يمارسون عليهم كل أشكال التعسف، لا يتمتعون بأية أملاك وحقوق من ذلك أن الأراضي الزراعية كلها كانت تحت تصرف وملك الإمبراطور وكبار العائلات الأرستقراطية، إضافة إلى أن كل من يملك أرض من صغار الفلاحين يجب عليه دفع الضرائب المجحفة علاوة على الخراج[١٢]، وتبعا لهذا الأسلوب ولهذا النظام الظالم الذي لم يحقق الوئام والوحدة الاجتماعية بل زاد في تعميق أزمة البربر وبروز الطبقية بشكل واضح وجلي وذلك بوجود طبقة مُرفها عليا وطبقة كادحة فقيرة، سارع البربر إلى تبني الدين الجديد الذي يحمل في طياته ضالتّهم من العدل والمساواة.

وفي هـذا الصـدد اتبـع مبشـرو الـدين الجديـد سياسـة استراتيجية دقيقة تقوم على التدرج في اختيار أماكن توزعهم لنشر ديانتهم والتركيز على الطبقات الفقيرة والكادحة لكسب ودهم واستمالتهم بالترغيب في الدين الجديد، فقصدوا المراكز الحضرية والساحلية ومن هناك نزحوا إلى المناطق الداخلية خاصة الأرياف والجبال أين تقع مواطن البربر[١٣]، وانتشر الرهبان بين البربر الذين بدورهم أبدوا قبولا للديانة المسيحية وترحيبا بها، كما لعبت الكنائس دور الوساطة للاتصال بالبربر لتفقيههم في الدين الجديد ومعالجة الأمور المستعصية والإصلاح ولم الشمل وهو ما عجز عنه الحكام الرومان[١٤].

أخذ الرهبان في التقرب من هذه الفئات الضعيفة بأساليب شتى مثل التصدق بالأموال والزهد في الحياة وإظهار التقشف والتعريف بقيم ديانتهم في التآزر وغياب التمييز العنصري مما انجر عنه توافد مجموعات البربر على هذا الدين، ونشير إلى أن موقف السلطة الحاكمة لم يظهر العداء بعد أو المعارضة للديانة المسيحية خاصة وأن هذه الديانة لم تتعرض للمصلحة العليا للإمبراطورية[١٥]، ولكن ذلك لم يدم طويلا فقد ازداد عدد المنتسبين إلى هذا الدين الجديد وأضحى في تصاعد مستمر، كما بدأت حركات المعارضة تخرج إلى العلن خاصة بعد هروب الجنود التابعين للإمبراطور وهو ما أزعج السلطة الحاكمة وكان نقطة البداية في الحرب بين السلطة والديانة المسيحية.

انطلقت السلطة الحاكمة في بث العراقيل والحواجز أمام أصحاب هذه الديانة للحد من انتشارها وتعطيل أفرادها وساندتهم في ذلك الجاليات الرومانية القاطنة بالمدن الكبرى خوفا من تضرر مصالحهم وممتلكاتهم، فذاق المقبلون على هذا الدين شتى أنواع التعذيب وخير مثال على ذلك ما قامت به السلطة الرومانية سنة ١٨٠م حيث أُصدرت حكم الإعدام على مجموعات كبيرة من السكان في مشهد مشين ومفزع، كانوا يجمعون المحكومين في يوم محدد بأحد الملاعب الكبيرة ويطلقون عليهم الأسود الجائعة فتفترسهم وتقطعهم على مسمع المتفرجين وأنظارهم، علاوة على سجن أعداد كبيرة منهم [١٦]. وزادت الأمور تعقيدا باعتلاء الإمبراطور "ذيوقليسياس" الحكم فأعاد فرض عبادة الأباطرة الرمانيين على الجند من جديد مما اضطرهم إلى الفرار مجددا، وأمر بهدم الكنائس ومنع الاجتماعات الدينية وصادر أملاكهم، وقد أتت هذه السياسة أُكلها حيث ارتد جزء كبير من النصارى عن الديانة المسيحية خوفا من بطش الإمبراطور[١٧].

ولكن الصراع الداخلي في أوائل القرن الرابع الميلادي بين الإمبراطور "ماكنوس" والإمبراطور "قسطنطين" حسم الأمر بعد حرب أهلية دامية بانتصار "قسطنطين" الذي اعتنق الديانة المسيحية سنة ٣١٢م وجعلها الديانة الرسمية للبلاد وشّرع بناء المعابد والكنائس في كل مناطق الإمبراطورية وأصدر مرسوما يقرّ بحرية المعتقد لجميع السكان.

وبالرجوع إلى وضعية بربر بلاد المغرب فإنهم لم يتفاعلوا إيجابيا مع هذه القرارات الجديدة فيما يكشف أنّ نيتهم الحقيقة من تبني هذا الدين هي أساسا بعيدة كل البعد عن كل ما هو ديني وإنما كان حجتهم وتعلتهم للثأر من الحكم الروماني الذي عمل على تحقيرهم وتهميشهم واستعبادهم، فلم تكن هذه القرارات إلا شرارة الانطلاق في البحث عن وسيلة جديدة معادية للدولة، كما أن هذا الدين الجديد لم ينجح كُليًا في القضاء على رواسب التّصوّر الديني القديم عند البربر[١٨].

٢/١-الأمازيغ والفتح الإسلامي

مثل الفتح الإسلامي النقطة الحاسمة التي حررت بلاد المغرب من الديانة المسيحية وذلك بنشر الدين الإسلامي، حيث كانت منطقة شمال إفريقيا تعاني من ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية صعبة، فهي خاضعة للحكم البيزنطي الذي يمتد نفوذه من حدود مصر ويضم برقة وطرابلس وتونس الحالية وجبال لأوراس ثم يقترب من الساحل وينتهي عند طنجة، غير أن هذا المجال الشاسع بدأ يصغر تدريجيًا جراء الغارات المستمرة من قبل البربر الذين لا يضيعون فرصة للاصطدام معهم ومحاربتهم مما أنهك القوى البيزنطية وأجبرها على التراجع إلى المناطق الساحلية وتقليص مجالها[١٩].

أمّا اجتماعيًا فقد كان التفكك والتمزق الاجتماعي هو الطاغي على سكان بلاد المغرب، فسكان شمال إفريقيا الأصليون هم البربر، مقسمون لقبائل وعشائر منهم البدو الرحل وهم أصحاب السهل والبسط والخيام يتنقلون بين مناطق المغرب حسب الفصول والمواسم، والبربر المستقرون سكان الجبال والمغارات مرتبطون بالأرض والزرع والحرث، من أهم سمات هذه القبائل أنها غليظة وحادة الطبع، يميل أهلها إلى الحروب والنزاعات، قبائل متفرقة لا يجمعها رابط إلا كونهم أبناء الجد الواحد، لا يتركون ثأرا لهم إلا وأخذوه بالقوة، يتحالفون وينقلبون حسب مصالحهم. عاش الأمازيغ فترات عصيبة في ظل التواجد البيزنطي حيث كانوا يعاملونهم معاملة العبيد ويغالون في فرض الضرائب عليهم إضافة إلى إبعاد الجند عن أراضيهم وعائلاتهم ما أثار الحقد والكراهية في نفوس البربر

تجاههم حتى استقرت رغبة الثأر والنيل منهم في أذهانهم، فلما كان قدوم الفاتحين المسلمين رأى الكثير منهم أنه سبيلهم في التخلص من الغازي البيزنطي[٢٠].

أمّا الحياة الدينية بالمغرب فقد كانت تشهد فوضى عارمة وشاملة تشبه إلى حد كبير حالة الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام، فأغلبية البربر لا يدينون بدين واحد فكان شمال إفريقيا مركزا للأديان المختلفة، منها المسيحية التي انتشرت بين سكانه واليهودية ولكن بنسبة أقل وفي هذا الإطار يورد ابن خلدون:" البربر بإفريقية والمغرب قبل الإسلام تحت ملك الإفرنج وعلى دين النصرانية الذي اجتمعوا عليه مع الروم"[٢١]ويبدو أن الآراء والعقائد كثيرة منها الوثنية فالكاهنة التي ثارت مع قومها على حسان ابن النعمان تخبرنا المصادر أنها هربت إلى جبال لأوراس وهي تحمل صنما عظيما من خشب تعبده وهو ما يؤكده ابن عذارى في قوله:" خرج رحمة الله عليه –يعني عقبة ابن نافع- غازيا للروم والبربر وهم آنذاك مجوس ونصارى"[٢٢].

(٢/١) ١-أدوات نشر الإسلام في بلاد المغرب ووسائله

انطلقت الفتوحات الإسلامية في شكل حملات عسكرية نحو أرض شمال إفريقيا الأمازيغية لنشر الدين الجديد وتطهير البلاد من الشوائب الدينية الأخرى، فراوح الولاة في سياستهم مع السكان بين اللين والشدة، حيث امتاز الفاتحون الأوائل بحسن التدبير والرفق واللين لاستمالة البربر واستقطابهم للدين الإسلامي، واعتمدوا في ذلك تدابير ووسائل وأدوات دقيقة وناجعة أتت أكلها بمرور الوقت، منها بناء المساجد التي تعتبر المركز الأساسي لنشر الدين الإسلامي باعتبارها أماكن تعليم وتنوير يقبل عليها كل من وفد إلى بلاد المغرب وتشير المصادر إلى أن القيروان وحدها احتوت ما يزيد عن عشرة مساجد ووردت عدة أسماء قامت ببناء المساجد على غرار أبي عبد الله بن رباح اللخمي وأبي رشد بن عبد الله السباني وغيرها كثيرة[٢٣]. وصحب المساجد الكتاب وهو مكان بسيط البناء صغير المساحة ملحق بالمسجد يتعلم فيه الصبيان تعاليم الدين الإسلامي ومبادئه.

كما كان للمخالطة التي عمل الولاة على تكثيفها أثر بالغ لأسلمه بربر بلاد المغرب، حيث اطلع الأمازيغ على سلوك المسلمين وتعاملوا معهم وتأثروا بهم فتفتحت له قلوبهم، وكان لحسان بن النعمان دور بارز في هذا الشأن فلم يقبل أمان البربر إلا بعد أن أمدوه باثني عشر فارسا من جميع قبائلهم ليشاركوا مع المسلمين في الحرب فأجابوه وأسلموا على يديه، وكانت غاية حسان حصول الاختلاط والتمازج بين البربر والمسلمين خاصة وأن هؤلاء الجند من جميع قبائلهم ويذكر مؤنس:" وكانت تلك خطة موفقة استطاع بها حسان أن يضمن ولاء البربر ويحبب إليهم الإسلام، فالبربر شعب محارب ميال إلى الغزو والسلب فأرضاهم اشتراكهم مع المسلمين في الحرب جنبا إلى جنب ولم يلبثوا أن أسلموا"، كما مثل فتح المسلمين للأندلس حدثا مهما ساهم في تزايد تواتر البربر على الإسلام ليلتحقوا بالمسلمين للمشاركة في الفتح [٢٤].

ولا يمكننا أن نغفل عن الهجرات الداخلية والخارجية التي ساهمت بدور كبير في أسْلمة البربر حيث وفدت أفواج كبيرة من المسلمين استقرت ببلاد المغرب نهائيا بعد قدومهم من كل أرجاء البلاد.

ومن أهم الأحداث والإنجازات التي ساعدت في نشر الإسلام اختطاط مدينة القيروان في ولاية عقبة بن نافع، فتأسيس مدينة القيروان كان بمثابة الإعلان الرسمي عن توطين المسلمين بشمال إفريقيا واستقرارهم بها وكان لذلك تأثير كبير من الناحية الشعبية، وهنا يورد الحاجري: "ويعتبر بناء مدينة القيروان سنة ٥١ للهجرة من الأعلام البارزة في تعريب الشمال الإفريقي، فقد بُنيت لتكون مدينة إسلامية عربية تجتمع فيها وجوه النشاط الإسلامي"، ويضيف ابن عذاري:" وهكذا لم يكن بناؤها حاجة عسكرية في عملية الفتح وتنظيمها فحسب يأوي الجند إليها وينتشرون منها، وترسم الخطط فيها، وإنما كانت مع ذلك نواة النشاط الإسلامي العربي في إفريقيا ومركزا دينيا وثقافيا تنتشر منه تعاليم الإسلام ومبادئه واللغة العربية وثقافتها وتتيح لهذا المجتمع الجديد المؤلف من العرب والبربر ألوانا من الاتصال والمشاركة في الحياة، وتولد العوامل المختلفة التي تلائم بينه وتربط بين عناصره في أسواقها ومساجدها"[٢٥].

لم تكن مدينة القيروان المدينة الوحيدة التي عمرها المسلمين لتقريب البربر من المسلمين للأخذ عنهم والاقتداء بهم، ففي ولاية حسان بن النعمان بُنيت مدينة تونس وهدفه من بنائها كان لغايتين، الغاية الأولى هي أن تكون ميناء حربيا للمسلمين وحصنا متينا أمام هجمات الروم البحرية، أمّا الغاية الثانية تتمثل في تسهيل الاتصال والتواصل بين البربر والمسلمين أثناء العمل بدار الصناعة التي بناها لصناعة السفن والمراكب داخل المدينة نفسها. ومن المشروعات الحيوية الأخرى التي ساعدت في الاختلاط والتمازج بين العرقين ما قام به عبد الرحمان ابن حبيب الفهري آخر وال لبني أمية على شمال

إفريقيا وذلك بحفر شبكة من الآبار التي تصل واحات إفريقيا الداخلية بمدينة "أودغشت" بصحراء المغرب الأقصى، وبهذا أصبح الطريق ممهدا أمام قوافل التجارة للعبور في غرب إفريقيا عبر الصحراء بعد أن كان الطريق الرئيسي الوحيد هو طريق الساحل[٢٦].

وفي إطار البحث عن الوسائل والطرق التي اعتمدها الفاتحون لنشر الإسلام، كانت الأولوية للدعوة بالتعليم وهنا لابد أن نعرج على أهمية البعثات العلمية التي أرسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز وكذلك الولاة لتفقيه البربر في الدين الإسلامي حتى أن هذه البعثات وصلت أقصى المغرب قبل أن يستقر الفتح، ويذكر ابن عذاري متحدثا عن فتح عقبة للمغرب الأقصى:" وقد كان عقبة بن نافع الفهري ترك فيهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن والإسلام"، وفيما يخص المغرب الأقصى يُورد عن موسى بن نصير:" وترك موسى بن نصير سبعة عشر رجلا من العرب ليعلموهم القرآن وشرائع الإسلام"، أما الخليفة عمر فقد مدهم ببعث علمية تشتمل على عشرة رجال يعرفونهم الحلال من الحرام ويدعونهم إلى الإسلام وكان لهذه البعث بالغ الأثر، فقد أقام معظمهم بالقيروان واختطوا المنازل والمساجد لتعليم القرآن وتلقين مبادئ العربية للكبار والصغار من البربر[٢٧].

وعليه انتشرت حلقات التعليم ومجالسه التي تُعنى بعلوم التفسير والحديث والفقه، ولم يقتصر ذلك على المدن والحواضر وإنما امتد إلى المناطق الداخلية الريفية والجبلية، حيث كان لمرور الجيش في طريقه بالقرى والبوادي تأثير واسع على السكان وتذكر المصادر أن أول من تعلّم القرآن في جبل نفوسة "عمر بن يمكنين"[٢٨]، وعجت المصادر بأخبار إسلام رؤساء قبائل البربر وزعمائهم منذ بداية الفتح وفي هذا يقول ابن خلدون:" وانساح المسلمون في البسائط بالغارات ووقع بينهم وبين البربر أهل الضواحي زحوف وقتل وسبي حتى لقد حصل في أسرهم يومئذ أمير مغراوة وسائر زناتة ورفعوه إلى عثمان رضي الله عنه فأسلم على يده ومن عليه وأطلقه وعقد له على قومه"[٢٩]. ومع أبي المهاجر دينار كان الحدث الأكبر وهو إسلام الزعيم البربري "كسيلة" الذي أدى آليا إلى إسلام قبيلته وهو ما يؤكده حسين مؤنس:" ولا نزاع في أن إسلام كسيلة كان حدثا عظيما له معناه وأثره البعيدان، فأما معناه فنجاح الفاتح الإسلامي في تأدية الغرض الأسمى من هذا الفتح وهو نشر الإسلام، وأما تأثيره فلا نزاع في أن كسيلة لم يسلم بمفرده وإنما تبعه نفر كبير من قومه من القادة والأقارب والأتباع والأصاغر"[٣٠].

وعلى هذا المنوال استمرت أسلمة بربر بلاد المغرب حتى عمت كامل أرجائه، فعندما أراد عقبة في ولايته الثانية التوجه إلى طنجة أعلمه أبو المهاجر دينار بإسلام أغلب سكانها وورد على لسانه: "ليس في طنجة عدو لك، لأن الناس قد أسلموا"، ومن الشواهد الدالة على انتشار الإسلام بداخل ما ذكرته المصادر عند وصول عقبة لجبل درن "نهضت زناتة وكانت خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة" وحول تدرج الجماعات البربرية في الدخول للإسلام ومناطق انتشاره، فقد أشار حسين مؤنس إلى أن القبائل القاطنة بالجنوب والتي تشبه طريقة عيشها إلى حد كبير نمط عيش العرب هي السباقة في الدخول للإسلام بينما انحصرت المقاومة للفتح في القبائل الشمالية التي لا تزال متأثرة بالحضارة البيزنطية[٣١].

(٢/١) ٢-ثورة البربر على الولاة

نستشف مما سبق ذكره حرص الخليفة عمر بن عبد العزيز على دعوة البربر إلى الإسلام بالترغيب والإحسان واللين، كما كان له الدور الأبرز في أسلمة بربر شمال إفريقيا فقد تميز بنظرة ثاقبة في اختيار ولاة بلاد المغرب وأحسن توجيههم ووضعهم في المسار الصحيح الذي يقوم على مبادئ أخلاقية وإنسانية تتماشى مع قيم الإسلام، وعن حسن اختياره لولاته يذكر المالكي:" ولى عمر بن عبد العزيز إسماعيل بن عبد لله فكان خير وال وخير أمير، ومازال حريصا على دعوة البربر إلى الإسلام فأسلم بقية البربر على يديه"[٣٢]، ويضيف ابن عذاري:" ولى إسماعيل بن أبي المهاجر إفريقية من قبل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ...، وهو الذي علم أهل إفريقية الحلال والحرام، وبعث معه عمر رضي الله عنه عشرة من التابعين أهل علم وفضل.. وكانت الخمر بإفريقية حلالا حتى وصل هؤلاء التابعون فبينوا تحريمها رضي الله عنهم"[٣٣].

وتصاعدت أسلمة بربر بلاد المغرب في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز وتضاعفت وبلغت أوج ازدهارها وثروتها في التعايش السلمي والتمازج بين العرقين، فقد وضع حد لتسلط الولاة واستعاد ثقة البربر في الزعامة الإسلامية، وأمر الوالي إسماعيل بن عبيد بإسقاط الجزية على من أسلم منهم، وتحرير من استرق من نسائهم وأمره بإرجاع الأراضي إلى أصحابها والاكتفاء بأخذ الخمس ودفع الخراج المعلوم وحمّله مسؤولية أعباء الإدارة والحرب مع جمع الخراج والصدقات ليحول دون جور الجباة وظلمهم[٣٤]. عمل الخليفة عمر بن عبد العزيز بما يتوافق مع

الشريعة الإسلامية خاصة بضمان المساواة بين المسلمين والبربر أي لا تمييز لجنس أو لون أو عرق إلا بالتقوى والعمل الصالح، والمسلم له جميع الحقوق وعليه جميع الواجبات سواء كان عربيا أو بربريا أو رومانيا.

ولكن هذه السياسة السلمية انتهت بمجرد وفاته وخلفه يزيد بن عبد الملك الذي عزل إسماعيل بن عبيد الله وعين مكانه يزيد بن مسلم سنة ١٠٢هـ/٧٢٠م، فاستبد بالبربر واضطهدهم وأعاد فرض الجزية على من أسلم من الموالي لتحصيل المزيد من الأموال والغنائم، واستفز كبرياءهم وشموخهم عندما قام بوشم حرسه من البربر بكلمة "حرسي" ما أثار نقمتهم وأجج مشاعر الثأر في نفوسهم فاتفقوا وأجمعوا على قتله وقتلوه، ولما وصل نبأ قتله للخليفة لم يبد أي سخط أو انزعاج وذلك حسب ما ورد على لسانه في المصادر حيث كتب لهم "إني لم أرض كما صنع يزيد بن أبي مسلم"[٣٥].

واتبع نفس الأسلوب عبيدة بن عبد الرحمان، وازداد الأمر سوءا إبان ولاية عبيد الله بن الحبحاب الذي قاد جيشه لسلب البربر وسبيهم في أطراف المغرب، ونشر الرعب والهلع في صفوفهم، وعين عمر بن عبد الله المرادي واليا على طنجة فأساء التسيير والتدبير واعتبرهم فيء وعبيد سواء أسلموا أو لم يسلموا، وقد أشار الرقيق لذلك في قوله:" فأساء السيرة وتعدى في الصدقات والقسم، وأراد أن يخمس البربر وزعم أنهم فيء المسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله"[٣٦]. وولى ابنه إسماعيل على السوس الأقصى فجار على أموالهم وعبث بنسائهم، وتقر المصادر بأن فترة ولاية ابن الحبحاب "كانت سببا لانتفاض البلاد ووقوع الفتن العظيمة" ولم تنتهه الصراعات عند البربر والمسلمين وإنما توازت فترة ولايته مع احتداد النزاعات بين العرب القيسية والعرب اليمنية وباعتباره قيسيا فقد نكل من باليمنية واضطهدهم شر اضطهاد، ومن جهة أخرى تتباين الروايات وتتناقض حول علم مركز الخلافة بما يقترفه العمال في بلاد المغرب والذي يمثله هشام بن عبد الملك في هذه الفترة أو أنّ أعمال الولاة كانت إرادة شخصية نابعة عنهم دون الرجوع إلى مركز الخلافة وهو ما يطرح تساؤلات كثيرة[٣٧].

أدت هذه السياسة التعسفية التي اتبعها الولاة إلى تنفير البربر من الدين الإسلامي الذي لم يجدوا فيه ما كانوا يوعدون من عدل ومساواة حيث استشرى الظلم الاجتماعي في كامل بلاد المغرب من صنع الخلافة وعمالها، فوجد البربر تناقضًا كبيرًا بين تعاليم الإسلام وأفعال الخلافة وعمالها خاصة في ظل سياسة الأمويين الأواخر، وتزامن هذا الوضع العام المتأزم مع ظهور حركة الخوارج بالمغرب بعد أن قام مركز الخلافة في المشرق بالقضاء عليها وتشتيت شمل أصحابها والتنكيل بهم، فسار من بقي منهم باتجاه المغرب لنشر مذهبهم والتعريف به بين البربر الذين كانوا يعانون بدورهم من وضعية صعبة. ونظرا لما امتاز به مذهب الخوارج من سماحة دين وديمقراطية باعتبار الإمامة حق متاح لكل مسلم فمن الطبيعي أن يلقى قبولاً واستحسانًا من قبل البربر الذين طال حرمانهم من الأمان وتحقيق المساواة مع العنصر العربي.

منذ ذلك الحين لم تهدأ بلاد المغرب من الصراعات والنزاعات الداخلية والخارجية، وشهدت البلاد جميع أوجه الانقسامات وبروز دويلات صغيرة تقوم على تحالفات قبلية، وعمت الثورات كافة البلاد ضد الولاة الأمويين ودخلت في حروب طويلة الأمد مع الخلافة العربية، علاوة على الصراع الدامي الذي دار بين الخوارج الإباضية والخوارج الصفرية الذي أدي للقضاء على هذه الأخيرة أولاً، أما الإباضية فقد ساهمت بالقضاء على نفسها بعد وفاة زعمائها الأولين وبروز الصراعات العائلية الداخلية وظهر للعلن تدخل النساء في الشؤون السياسية، كل هذه الظروف ساعدت الخلافة العربية على القضاء عليها على يد يزيد بن حاتم.

ثانيًا: الأمازيغ والتدين الشعبي في بلاد المغرب

لم يمنع الدين الرسمي البربر من ممارسة معتقداتهم الروحية الحاضرة بقوة في المجتمع المغربي، حيث تعود سكان بلاد المغرب على زيارة الفضاءات المقدسة المختلفة من أَضرحة وزوايا...، علاوة على إقبالهم على الأولياء الصالحين والمتصوفة للتبرك بهم وكسب رضاهم والتذلل لهم لقضاء الحاجة وفك الكرب، كما كانت الوضعية العامة للبلاد من ظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية هي العامل الرئيسي في بروز هذه الظواهر الدينية الشعبية.

٢/١-أصناف المقدسات الشعبية

(٢/١) ١-الأولياء الصالحون والمتصوفة

من الصفات التي تميز بها سكان بلاد المغرب في الفترة القديمة والوسيط وحتى المعاصرة تعظيمهم للأولياء والإيمان بالخوارق والإقبال المكثف عليهم للتبرك بهم، خاصة في الأوقات العصيبة فكلما اندلعت أزمة اجتماعية أو اقتصادية كانت الأماكن المقدسة والأولياء والمتصوفة ملجأهم الوحيد، كما كانوا يجدون ضالتهم عندهم في البحث عن السعادة والحلول لمشاكلهم والراحة النفسية والجسدية، وتورد المصادر: "إن

ظاهرة تقديس الأولياء عريقة وشديدة الاتساع، والأولياء لهم القدرة على حل المعضلات، يرشد ويشفي ويكون ملجأ لأصحاب الحاجات، والشاعرين بالجور والشاكين بالإحباط، وهم قادرون على الانتقام من السارقين والمشككين به..".

إن ظاهرة تقديس الأولياء لم تكن وليدة فترة زمنية معينة وإنما يمكن إرجاعها إلى مرحلة الاستقرار وبداية الحضارة حيث رافق هذا الاستقرار المكاني استقرار روحي ونفسي يتمثل في البحث عن إجابات لأسباب التحولات الطبيعية. وقد تعددت أنواع الأماكن المقدسة وأصنافها في بلاد المغرب التي نجدو في مقدمتها الأضرحة والزوايا، والزوايا لغة: جمع زاوية وهي مأخوذة من فعل زوى وانزوى بمعنى ابتعد وانعزل، أما اصطلاحًا: فيُراءُ بها مأوى المتصوفين والفقراء[٣٨]، ويطلق مصطلح الزاوية على البناية ذات الطابع الديني والثقافي، يعرفها ابن مرزوق بأنها: "والظاهر أن الزوايا عندنا في المغرب هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاج من القاصدين".[٣٩]

تشير المصادر إلى أن بلاد المغرب عرفت انتشار الزوايا بعد القرن الخامس للهجرة، وأطلق عليها في بادئ الأمر مصطلح "دار الكرامة" حتى جاء المرينيون بتسمية جديدة وهي "دار الضيافة"[٤٠]. إضافة إلى الزوايا والأضرحة لم يتوان البربر عن عبادة الأشجار مثل شجرة الزيتون المباركة وكذلك عيون المياه الجارية ومنابعها وبعض الآثار الحيوانية والإنسانية. عموما مثلت كل هذه المقدسات المختلفة قوة دينية وعرفية منافسة للديني الرسمي حتى أنها تتجاوزه أحيانًا كثيرة من حيث المواظبة على الزيارات وتقديم الهدايا.

وعجت المصادر التاريخية بأخبار النوادر والأحداث المصاحبة لشتى أنواع الخوارق والمعجزات التي تخص الأولياء الصالحين وكذلك السحر والشعوذة وأشادت بالتعلق الشديد لسكان المغرب بهم، ويذكر البكري في القرن ٤هـ/١٠م: "أن هناك كاهنة ساحرة تعرف بتانفيت وهي عمة حاميم بن منّ الله بن حريز تقطن بالقرب من تيطاوان فكان النساء يزورونها ويتبركون بها بعد وفاتها، وكذلك أخت دجو فكانت هي أيضا ساحرة كاهنة فكانوا يستغيثون بها في كل حرب وضيق ويزعمون أنهم يجدون نفعًا"[٤١]، علما وأن الزائر لهذه الفضاءات يمارس طقوسا وشعائر مختلفة حسب حاجته إذا يكاد يكون لكل نوع من المزارات أعرافه وتقاليده سواء كان ضريحا أو زاوية أو غار أو شجرة.

اشتهر سكان المغرب بتعظيمهم للأولياء الصالحين والمتصوفة حتى أن بعض القبائل اختصت بتخريج الأولياء على غرار هسكورة ويشير ابن قنفذ لذلك في قوله: "وقد سألت عن جملة الطوائف التي هي بالمغرب الأقصى في الأرض التي تنبت الصالحين كما تنبت الكلأ، فوجدتها معددة باعتبار تعدد الأشياخ"[٤٢]. وفي هذا الإطار ضمت مدينة بجاية بالمغرب الأوسط خلال القرنين ٥و٦هـ/١١و١٢م عددًا كبيرًا من الأولياء الصالحين حتى أطلق عليها "مكة الصغيرة"[٤٣]، وكان بوادي ماسين بشمالي ندرومة حصن ورباط حسن يقصده الناس للتبرك به وإذا سرق أحد فيه وأتى بفاحشة لم تتأخر عقوبته. ونال بعض الشيوخ أعلى درجات التقديس مثل الشيخ أبي عبد الله الذي ينسبون إليه جملة من الخوارق كتلك الزوبعة التي هبت بالكبش من البادية لإكرام الضيوف وخروج الجراد من ضيعته بعد أن دعا عليه[٤٤].

اختلفت الدوافع والأسباب لإقبال السكان على هذه الأماكن، فنجدو منها الأمراض المستعصية التي عجز الأطباء عن مداواتها من ذلك أن رجلاً من أهل مكناسة كان له صبي عمره أربعُ سنوات لم يقدر على الكلام فنصحوه بزيارة أبي الحسن علي بن إسماعيل أحد أولياء فاس المشهورين، فدعا الولي للابن بالشفاء فنطق لسانه بالكلام. ومن الأولياء الصالحين ذوي الشهرة الواسعة ببلاد المغرب أبو يعزي يلنور (٥٧٢هـ/١١٧٨م) الذي لعب دورًا مهمًا على المستوى الاجتماعي فكان يصلح بين الأزواج ويسعى لتزويج النساء ومباركتهن، تذكر المصادر في حديثها عنه: "وكان عنده من حسن السياسة والرفق بالقلوب والسعي في صلاح ذات البين وتواد الزوجين ما تشتهي سماعه الأنفس... فقلما كانت تهدى عروس من أهل تلك البلاد المجاورة لبعلها حتى يؤتى بها إليه برسم الدعاء لهما والتبرك عليهما فيفعل ذلك يكلمهما حتى يذهب النفار والشراد ويسرهما ويضحكهما حتى يقوم بينهما من الأنس والتأليف المأمول والمراد، وينصرفا إلى بيت أبنائهما"، ومن أعماله التي دونتها الكتب أيضا قدرته على إرجاع بصر رجل مسن بواسطة قطعة من القماش من برنسه الذي احترق وكذلك معالجته للمرض مثل العضال والإسهال والأمراض الجلدية وداء البرص والقرع وغيرها كثير[٤٥]. هذا ولم يقتصر اعتقاد سكان المغرب على الأولياء الأحياء فقط وإنما تجاوزوا ذلك فمنهم من يستشفي بتراب قبور بعض الأولياء.

كما كانت الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية سببًا مفصليًا في ارتفاع نسبة الإقبال على الأولياء والمتصوفين، فعندما طالت فترة الجفاف بمدينة فاس لجأ العوام إلى الشيخ يعلي أبي جبل ليدعو لهم بنزول المطر، وكذلك عند انتشار الجراد.

٢-(١/٢) الخرافات والأساطير

صاحبت الاعتقاد بالصالحين مجموعة من القصص الخرافية التي تناقلها البربر على مر السنوات مثل قصة الرجل المقتول في الطريق المؤدي إلى بسكرة في الجبل المعروف بـ"زيغيري" في وسط كهف ولا يزال دمه يقطر بالرغم من مرور زمن طويل على قتله، وكذلك بالقرب من جبل تبسة مرتفع يعرف بـ"الكتف" وفي أعلاه مغارة لا يُقدر على الوصول إليها لا من فوق الجبل ولا من تحته، يقال إن فيها مالا عظيما وأن الطير إذا نزلت في تلك المغارة وطارت سقطت منها دنانير كبار من الذهب وهذا متعارف عليه في تلك البلاد[٤٦].

وفي ما يتعلق بالمقدسات المرتبطة بالمياه فقد ورد أنه يوجد بين جيجل وبجاية موضع يسمى المنصورية عليه جبل عظيم ينبعث منه ماء في "كل وقت من الأوقات المعهودة بالصلوات الخمس، ينبعث الماء هكذا ليلاً ونهارًا"، قصدت أغلب شرائح المجتمع المغربي منابع المياه المباركة اعتقادا منهم في نجاعة مياهها في الشفاء وتطهير الأبدان وفي هذا السياق تشير المصادر إلى أن البربر المجاورين لأحد عيون المياه بمغارة بلاد فازاز إذا أرادوا معرفة شفاء المريض أو موته حملوه لرأس العين، فيغطسونه فيها حتى يقرب أن يطفو ثم يخرجونه فإن خرج على فمه دم يستبشرون بحياته وإن لم يخرج من فمه دم أيقنوا هلاكه وهذا بالنسبة إليهم محتوم لا جدال ولا شك فيه[٤٧].

كما كانت الفتيات العوانس الراغبات بالزواج في بعض مناطق المغرب يتوجّهن إلى منابع المياه المعروفة لتسهيل زواجهن وتيسيره مثل عين "للا رحمة" في منطقة ابزو التي تقع على جبل شاهق من جبال الأطلس الكبير، وحسب العرف الجاري يغتسلن في مائها ويتركن بعض ملابسهن الداخلية وخصلات من شعرهن والمشط بعد أن يوقدن الشموع ويضعن بعض قطع السكر والتمر بالمكان، وقبل كل هذا يقمن بنثر "البسيسة" في مدخل العين وهذا التقليد سار للفترة المعاصرة[٤٨]. وفي مسألة التنبؤ بالمستقبل خاصة تسهيل الزواج والإنجاب اشتهرت عدة نساء صالحات متصوفات زاهدات واختصت في هذا الأمر منهن "لالة مغنية الفاسية" والصالحة "لالة سيتي" التي لها كرامات تشهد لها مما جعل ضريحها محل استقطاب وتبرك وفي حياتها كانت تفرض الزيارة على البنت العانس فقط خشوعا وتضرعا لأهل المكان لقضاء حاجتها.

٢-(٢/٢) توظيف التصوف في الحياة السياسية

يبدو أن هذا الإيمان المطلق بالصالحين ومعجزاتهم علاوة على سذاجة عقول البربر وبساطتها قادهم إلى المحظور وجعلهم فريسة سهلة الابتلاع في يد بعض الزعماء السياسيين الدهاة، وخير مثال على ذلك الداعية المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية وباعثها حيث استغل بساطة فهمهم للمعتقد الديني وتصديقهم لكل ما يسمعون خاصة وأنهم أميون لا يفقهون شيئا عن القراءة والكتابة، ولا يغادرون جبالهم ولا يخالطون أي غريب منغلقين لحد التزمت، فنزل عندهم ابن تومرت بعد عودته من رحلته العلمية في المشرق واستقر بينهم لنشر دعوته وهو مدرك جيدا لنقاط ضعفهم وطباعهم الحادة فاستمالهم بالكذب والدهاء واستعملهم لبلوغ غايته المنشودة وهي الإحاطة بدولة المرابطين وتأسيس دولته، ورسم لذلك العديد من الخطط بمساعدة أصدقائه المقربين منها أنه اتفق مع صديقه المقرب عبد الله الونشريسي ليخفي ما هو عليه من علم وفصاحة ويظهر الغباء والسذاجة ليطلع على أسرار السكان وأحوالهم ويفصح عن ذلك عندما يطلب منه ابن تومرت بعد قراءة بعض التعويذات والطقوس فيكون بمثابة المعجزة فيصدقه الناس ويؤمنون بدعوته، فأتقن الونشريسي الخداع والدجل وانطلت الحيلة عليهم، إضافة إلى هذا بلغ به الحد أن أمر بعض التابعين له بحفر القبور ودفن أنفسهم فيها والإبقاء فقط على الأنف والفم لتنفس والكلام، فيصطحب جماعته للمقبرة ويزعم أنه يحدّث الموتى وهم يجيبونه وعند الانصراف يأمر بإكمال دفنهم احتياط منهم في كشف سره يوما ما[٤٩]،ما دفع البعض من قومه لنفي الصفة البشرية عنه وأنزلوه منزلة الرسل بعد أن نسب إلى نفسه صفة المهدي المنتظر.

يمكن أن نرجح هنا أن دخول الإسلام لبلاد المغرب لم يشمل بعض المناطق الداخلية خاصة الجبلية الوعرة والتي تقطن بها في نفس الوقت أشرس القبائل البربرية مثل المصامدة فهم لا يسمعون لغاز ولا وارد عليهم ولا يختلطون بأية أقوام أخرى وفي بعض الأحيان لا ينزلون من جبالهم إلا للحاجة الشديدة فهم منعزلون تماما عن العالم الخارجي، فعندما وصلت جيوش صنهاجة الجنوب لتطهير المغرب من الشوائب

الدينية وجدوا قبيلة برغواطة لا تعرف شيئا عن الإسلام ومبادئه ووجدوا أفرادها منغمسين في الجاهلية، حيث ادعى أحد أفرادها وهو صالح بن ظريف بن شمعون البرباطي النبوة، فأصبحت كلمة برباطي تطلق على كل من اعتنق مذهبه ثم حُرفت إلى برغواطي نسبة إلى قبيلة برغواطة المصمودية وهم عشائر وبطون كثيرة تجمعها وحدة الأصل، ويعتقد بربر هذه القبيلة أن صالح بن ظريف هو المقصود في سورة التحريم:" وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير"[٥٠]. وزعم صالح أنه كذلك المهدي المنتظر الذي يظهر في أخر الزمان لقتال المسيح الدجال وإن عيسى ابن مريم يكون من أصحابه ويصلي خلفه، وأمر قومه بإتباع شريعته التي ضمنها صوم شهر رجب بدل رمضان وأضاف إلى طريقة الوضوء المعمول بها في الإسلام غسل الصرة والخاصرتين، وفرض عليهم خمس صلوات في الليل وخمسا في النهار وبعض صلواتهم إيماء بلا سجود، وأباح لهم تزوج النساء أكثر من أربع وأباح لهم الطلاق وحرم عليهم زواج بنت العم وزواج المسلمات وشرّع قتل السارق ورجم الزاني ونفي الكاذب، وحرم ذبح الديك والبيض عندهم حرام ولا يجوز أكله حتى أن المرابطين حين وصلوا بلادهم ذُهلوا من كمية البيض الموجودة وكثرة الديوك والدجاج، وليس عندهم أذان ولا إقامة يعرفون قدوم الصبح بصياح الديوك[٥١].

ومن جهة أخرى استغل بعض خلفاء بلاد المغرب نفوذ أصحاب هذا الاتجاه الديني وتأثيرهم لتحقيق شعبية أكبر بالتقرب منهم واستقطابهم والثناء عليهم بالعطايا والهدايا لأغراض سياسية، وأبرزهم المنصور الموحدي الذي أمر بجمع الصالحين والمتصوفين من جميع البلاد في حملته الكبرى ضد الأندلس متبركا بهم لتحقيق النصر، وفي حديث أخر بلغ به الأمر في تكريم أحد المتصوفين إلى أن توجه إليه بنفسه وصعد إليه الجبل مع جمع من الفقهاء والتابعين والصالحين للتبرك به حتى نزل معه وحبس عليه مدرسة للعلم والتدريس وزاوية للفقراء ودارًا لسكناه[٥٢].

خَاتِمَةٌ

حاولنا في هذا البحث تقديم لمحة عن علاقة الأمازيغ بالديانات التي مرت بهم من وثنية ومسيحية ويهودية حتى قدوم الفتح الإسلامي، فتميزت الفترة القديمة بمحاولات الحضارات الغازية فرض ثقافتها وديانتها على بربر شمال إفريقيا، وهو ما فشلت فيه بسبب سوء معاملتها واضطهادها لهم، وفي نفس الوقت استغل البربر هذه السياسة التعسفية لصالحهم للانقلاب على الحكم الروماني والبيزنطي في شكل حروب دامية متواصلة. ومع وصول العنصر العربي أمل البربر في العدل الاجتماعي والمساواة ولكن جور الولاة حال دون ذلك وقُسمت بلاد المغرب من جديد، كل هذه الثغرات والتجاوزات التي ارتكبها أصحاب الدين الرسمي أدت آليا إلى زيادة نفوذ التدين الشعبي عند بربر بلاد المغرب فكان ملجأهم الوحيد لقضاء الحاجات والطلبات، علاوة على شعور الأمان والطمأنينة الذي يجدونه في هذه الأماكن ويفقدونه مع الدين الرسمي القائم.

وعلى الصعيد الاجتماعي يمكن أن نستنتج من ارتفاع وتيرة الزيارات للأماكن المقدسة والإيمان بالخوارق والمعجزات تعمّق أزمة الأمية والجهل عند البربر خاصةً الذين لم يصلهم الإسلام وهم المنعزلون في مواطنهم الجبلية والريفية البعيدة والوعرة، مما جعلهم أداة ووسيلة للسياسيين الطغاة الذين استغلوا سذاجة تفكيرهم وبساطة عيشهم للاستحواذ على عقولهم وقيام الدول على أكتافهم.

الاحالات المرجعية:

(١) عمامو (حياة)، **أسلمة بلاد المغرب**، دار الأمل للنشر والتوزيع، تونس ٢٠٠٤، ص٢٢.
(٢) إكزال (ستيفان)، **تاريخ شمال إفريقيا قديما**، ترجمة محمد التازي سعود، ج١، مطبعة المعارف الجديدة، ط١، المغرب، ٢٠٠٧، ص ٢٠٩.
(٣) كامبس (كبريال)، **البربر ذاكرة وهوية**، ترجمة عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٤، ص ٢٤١-٢٤٢.
(٤) اكزال (ستيفان)، المرجع نفسه، **تاريخ شمال**...، ص ٢٠٩.
(٥) كامبس (كبريال)، المصدر نفسه، **البربر ذاكرة**...، ص ٢٤٩-٢٥٩.
(٦) الإفريقي (ليون)، **وصف إفريقية**، ترجمة حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط٢، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٦.
(٧) محي شرف الدين (محمد)، **إفريقيا الشمالية في العصر القديم**، دار الكتب العربية، ط٤، ١٩٦٩، ص٤٦.
(٨) روني، **أبحاث في دين الأمازيغ**، ترجمة وتقديم حمو بوشخار، الرباط، ٢٠١٢، ص ١٠٦.
(٩) محمد الصلابي (علي)، **صفحات تاريخ ليبيا الإسلامي والشمال الإفريقي**، دار البيارق، الأردن، ط١، ١٩٩٨، ص ١٢٢-١٢١.
(١٠) المدني (أحمد توفيق)، **قرطاجن في أربعة عصور**، طبعة تونس، ١٩٢٦، ص ١١٤-١١٧.
(١١) المرجع نفسه.
(١٢) عبد الحميد (عمران)، **الديانة المسيحية في المغرب القديم-النشأة والتطور (١٨٠-٤٣٠م)**، رسالة دكتوراه، جامعة منتوري-قسنطينة، الجزائر، ٢٠١١، ص ١٠٠.
(١٣) حارش، **التاريخ المغاربي القديم، السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي**، المؤسسة الجزائرية، ١٩٩٢، ص ٢٢٤.
(١٤) خطاب (محمود شيت)، **قادة فتح المغرب العربي**، ج١، دار الفكر، بيروت، ط٧، ١٩٨٤، ص ٣٩-٤٠.
(١٥) حارش، المرجع نفسه، **التاريخ المغاربي**...، ص ٢٢٤-٢٢٥.
(١٦) المدني (أحمد توفيق)، المرجع نفسه، **قرطاجن في أربعة**...، ص ١١٣.
(١٧) حارش، المرجع نفسه، **التاريخ المغاربي**...، ص ٢٢٧-٢٢٨.
(١٨) بل (ألفرد)، **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم**، ترجمة: عبد الرحمان بدوي، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨١، ص ٦٠.
(١٩) مؤنس (حسين)، **فتح العرب للمغرب**، دار الثقافة الدينية، مصر، ص ١٤-١٥.
(٢٠) مؤنس (حسين)، **فتح العرب للمغرب**، دار الثقافة الدينية، مصر، ص ٢٣-٢٤.
(٢١) ابن خلدون (عبد الرحمان)، **العبر**، ضبطه خليل شحادة، راجعه سهيل زكار، دار الفكر لط، ن، ت، ٢٠٠١، ج٦، ص ١٢٦.
(٢٢) ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تح ج.س كولان وليفي بروفنسال، ط٣، دار الثقافة، بيروت، ج١، ص ٢٤.
(٢٣) الدباغ (أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الأنصاري)، **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، تعلق وتحقيق أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى ومحمد الأحمدي أبو النور، مكتبة الخانجي، مصر، المكتبة العتيقة، تونس، ج١، ص ٢٧.
(٢٤) مؤنس (حسين)، المرجع نفسه، **فتح العرب**...، ص ٢٧٥.
(٢٥) طه الحاجري (محمد)، **دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣، ط١، ص ٣٧.
(٢٦) هويدى (يحيي)، **تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية**، ج١، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٥، ص ١٤٥.
(٢٧) ابن عذاري، المصدر نفسه، البيان...، ج١، ص ٢٤-٤٢.
(٢٨) المالكي (أبو بكر)، **رياض النفوس في طبقات علماء إفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم**، تح : بشير البكوش، مر: محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ١٩٩٤، ط١، ج١، ص ٢٥٥.
(٢٩) ابن خلدون، المصدر نفسه، **العبر**، ج ٦، ص ١٠٨.
(٣٠) مؤنس (حسين)، المرجع نفسه، **فتح العرب**...، ص ١٧٦.
(٣١) المرجع نفسه، ص ٢٢٠.
(٣٢) المالكي، المصدر نفسه، **رياض النفوس**...، ج١، ص ١١٦.
(٣٣) ابن عذاري، المصدر نفسه، **البيان**، ج١، ص ٤٨.
(٣٤) ابن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب**، تح: عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ج١، ص ٢٨٠.
(٣٥) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، راجعه وحققه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ط١، ج٥، ص ١٠١.
(٣٦) الرقيق القيرواني (أبو إسحاق)، **تاريخ إفريقية والمغرب**، تح: عبد الله العلي الزيدان وعزالدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠، ط١، ص ١٠٩.
(٣٧) ابن عبد الحكم، المصدر نفسه، **فتوح مصر**...، ص ٢٩٣.
(٣٨) العقبي (صلاح مؤيد)، **الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشأتها**، دار البراق، بيروت-لبنان، ٢٠٠٢، ص ٣٠١-٣٠٢.
(٣٩) ابن مرزوق التلمساني (محمد)، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تح: ماريا خيسوس، تق: محمد بو عياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١، ص ٤١١-٤١٣.
(٤٠) البوعبدلي (المهدي)، "**الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى**"، مجلة الأصالة الجزائرية، العدد ١٣، الجزائر، ١٩٧٣، ص ٢٦.
(٤١) البكري (أبو عبيد الله)، **المسالك والممالك**، تح: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، ج٢، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢، ص ٧٧٦.
(٤٢) ابن قنفذ (أبو العباس)، **أنس الفقير وعز الحقير**، تصحيح: محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ١٩٦٥، ص ٦٣.
(٤٣) عويس (عبد الحليم)، **دولة بني حماد، صفحة رائعة من التاريخ الجزائري**، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١، ص ٢٤٢.
(٤٤) الدرجيني (أبو العباس)، **طبقات المشائخ بالمغرب**، تح: الشيخ إبراهيم محمد طلاى، مكتبة التراث، الجزائر، ج٢، ص ١٩٨-٢٠٥.
(٤٥) عبد الرؤوف (أحمد)، **الدلالات التاريخية لكرامات الأولياء بتلمسان الزيانية**، مذكرة ماجستير، عبد الحميد العابد، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي، ٢٠١٥، ص ٨٤.
(٤٦) مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق عبد الحميد سعد زغلول، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، بغداد، ص ١٦٣-١٧٨.
(٤٧) الجزنائي (علي)، **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تح: عبد الوهاب بن منصور، المكتبة الملكية، الرباط، ١٩٩١، ص ٧٣-٧٤.
(٤٨) فرحات (المصطفى)، **طقوس وعادات أهل "أبزو"**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠٠٧، ص ٣٤.
(٤٩) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج٥، تح: إحسان عباس، دار صابر، بيروت، د-ت، ص ٤٨.
(٥١) مجهول، **مفاخر البربر**، تح: عبد القادر بوباية، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠٠٥، ص ٧٧.
(٥٢) المراكشي (عبد الواحد)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تح: محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢٨٦.